مقدمة

كتابةُ مقدمةٍ في علم الاقتصاد مهمةٌ سهلةٌ وصعبةٌ معاً. إنها سهلة لأننا جميعاً، بطريقة أو بأخرى، مُلِمُّونَ بعلم الاقتصاد، فمثلاً، ليس من الضروري أن يشرح لنا أحد ما هي الأسعار ـ لأننا نتعامل معها يوميا. قد يشرح لنا الخبراءُ السببَ في دفع المصارف فائدة على المدخرات، أو السببَ في أن الطريقة التي نسلكها في قياس الثروة تفتقد الكثير من العناصر التي تُبنَى عليها عملية القياس، بيد أنه لا يوجد بين هذين السببين ما يعدُّ فكرةً غريبةً عنا. وبرغم أهمية علم الاقتصاد لنا، فلدينا أيضاً آراءٌ فيما يجب عمله لوضع الأمور في نصابها عندما نشعر بأنها خاطئة. ونحن نتشبث بقوة بآرائنا لأن أخلاقنا تدفع سياساتِنا، وسياساتُنا توجّهُ اقتصاداتِنَا. وعندما نفكر بمنهجِ علم الاقتصاد، فإننا لا نتساهل مع الأمور المشكوك فيها. وهكذا فإن نفس الأسباب التي تدفعنا إلى دراسة علم الاقتصاد، تقوم مقامَ حجر عثرةٍ أمامنا، حتى عندما نحاول كشفَ النقاب عن الطريق التي يستعملها عالَمِ الاقتصادِ لصوغ ذاته. بيد أنه لمّا كان علم الاقتصاد يتناول هذه الطرق على مقياس واسع، فعلينا ألاّ نُصابَ بالدهشة من أن معظم الاختلافات بين

الناس حول القضايا الاقتصادية ناتجة، في النهاية، من قراءاتهم «للحقائق» لا «القيم» التي يؤمنون بها. وهذا هو السبب في أن كتابَةَ مقدمةٍ في علم الاقتصاد أمرٌ صعب.

وعندما بدأتُ برسم الخُطط لتأليف هذا الكتاب، لم يغب عن بالي أنْ أقدّمَ للقراء نظرةً شاملةً إلى علم الاقتصاد كما يقدَّم في المجلات والكتب الاقتصادية. بيد أنه برغم القوة التحليلية التي تطغى عليها طوال عقود، فلم أكن مرتاحاً في اختيار المواضيع التي تتناولها الكتب المقرّرة (الحياة الريفية في المناطق الفقيرة ـ أي الحياة الاقتصادية لبليونيْن ونصف البليون من الناس ـ لا تذكَر فيها إطلاقاً)، ولا في اختيار المواضيع التي يجري التركيز عليها في كبريات المجلات الاقتصادية (نادراً ما تظهر فيها الطبيعة بوصفها عنصراً نشيطاً). إضافة إلى ذلك، طلبَتْ مني مطبعة جامعة أكسفورد كتابةَ مقدمةٍ مختصرةٍ جدًّا في علم الاقتصاد، علماً بأن ثمة كتباً جامعية في علم الاقتصاد عدد صفحتها أكثر من 1,000! لذا شعرت بالصدمة من أنه يتعيّن عليّ التخلي عن خطتي الأصلية، وأقدّمَ وصفًا للمحاكمة التي نجريها، نحن الاقتصاديين، بغية فهم العالَمِ الاجتماعيِّ المحيطِ بنا، ثم نشر هذه المحاكمة لتعمّ بعض أكثر المشكلات الملحة التي تواجهها البشرية في هذه الأيام. ولم أدركْ إلاّ منذ عهد قريبٍ أنه لا يمكنني عملُ ذلك إلاّ إذا عَرَضْتُ مسار

حَيَاتَيْ اثنتيْن من البنات اللتيْن اعتبرهما حفيدتاي الأدبيتيْن ـ بيكي Becky وَدستا Desta. إن حياتيْ بيكي ودستا جدّ مختلفتين، بيد أنه لمّا كانتا حفيدتيَّ، فإنني أعتقد بأنني أفهمهما والأهم من ذلك، هو أن علم الاقتصاد ساعدني على فهمهما.

إن الأفكار، التي أقدّمها في هذا الكتاب، سبق أن أُطِّرَتْ وبُحِثَتْ في كتابي بعنوان An Inquiry into Well-Being and Distribution (الذي نشرتْهُ Clarendon Press عام 1993). وخلال كتابتي لهذا الكتاب، أدركْتُ أنّ علم الاقتصاد كان يَدْفَعُ أخلاقياتي بقوة متزايدة، وأنّ أخلاقياتي بدورها وجّهت سياستي. ولما كانت هذه سلسلةً سببيّةً غيرَ عاديَّة، فقد كان الكتابُ السابق أكثرَ تقنية و«أثقل عياراً» بقدر كبير. هذا وإن التقدّمات النظرية والتجريبية التي حدثت في علم الاقتصاد منذ نشر الكتاب قادتني إلى التمسّك بوجهة نظري التي أوردْتها هناك حتى بقوة أشد. لقد فهمْتُ أشياء أفضلَ كثيراً ممّا كنت أفهمها آنذاك ـ ومن ضمنها أسباب عدم فهمي لكثير من الأشياء. وكتابي الحاليّ ليس سوى امتدادٍ لكتابي السابق.

وخلال إعدادي لهذا الكتاب، استفدت كثيراً من المراسلات والمناقشات التي جرت بيني وبين K. Arrow، G. Daily، C. Dasgupta، P. Ehrlich، P. Geraats، L. Goulder، T. Gowers،

R. Hassan، S. Iyer، P. Krishnan، S. Levin، K. Mäler، E. Maskin، P. Mukhopadhay، K. Mumford، R. Nolan، S. Ogilvie، K. Oleson، A. Patel، S. Pattanaik، W. Peterson، H. Sabourian، D. Schrag، P. Shyamsundar، J. Vincent، M. Weale، G. Wright.

ويبـيّن محتوى الكتـاب الحالي أثـر التعليقات التـي تسلمتها في مسوّدة سابقة من K. Arrow، C. Dasgupta، G. Harcourt، M. Shaw، R. Solow، S. Tomaselli. وقد ساعدتْني S. Pilkington بعـددٍ غير منته مـن الطرائق في إعـدادي هذا الكتـاب للنشر. لذا فإنني شاكر لهم جميعاً.

كلية القديس جون

كيمبردج

أغسطس/ آب/ 2006

التعليقات على صور الكتاب

الصفحة 18: 1. بيت بيكي.

الصفحة 19: 2. بيكي على دراجتها الهوائية متجهة إلى مدرستها

الصفحة 20: 3. بيت دستا.

الصفحة 21: 4. دستا في عملها.

الصفحة 95: 5. الأطفال وهم يجمعون الحطب الذي يستعملونه للوقود من الأراضي المشاع المحلية.

الصفحة 112: 6. العلاقات بين معدل الولادات المرغوب في أسرة متوسطة ومعدل الولادات الإجمالي في المجتمع.

الصفحة 130: 7. درس حبوب التِّفِّ في إثيوبيا.

الصفحة 138: 8. منحنيا العرض والطلب.

الصفحة 152: 9. مركز تسوّق كبير في عالم بيكي.

الصفحة 153: 10. سوق في عالم دستا.

الصفحة 171: 11. براءة اختراع لبيانات قيثارية harpsichords تعود إلى القرن الثامن عشر.

الصفحة 202: 12. المتاجرة في سوق أسهم (بورصة) فرانكفورت

قائمة الجداول

الجدول 1. الأمم الغنيّة والفقيرة 47

الجدول 2. تقدّم الأمم 234

الجدول 3. مقارنة القواعد الانتخابية 266

توطئة

عالَمُ بيكي Becky

إن بيكـي، التي تبلغ العاشرة من العمر، والتي تعيش مع والديْها وأخٍ أكـبرَ منهـا اسمه سام، تقيـم في إحدى ضواحي مدينـةٍ تقع في الغرب الأوسـط مـن الولايات المتحـدة الأمريكيـة. يعمل والد بيكـي في شركة متخصصـة في قانون الملكيّـة. دخله السنوي متغيّر قليـلاً، بسبب تغير أربـاح الشركـة، لكنه نادراً ما يقـل عـن 145,000 دولار أمريكي. وقد تعرّف الوالدان أحدهما على الآخر في الكلية. عملت الأم بضع سنوات في النّشـر، غير أنها قررت، بعد ولادتها سام، التركيزَ على رعاية عائلتها. وبعد دخول بيكي وسام كليهما المدرسةَ، صارت تمارس عملاً طوعيًّا في مجال التعليم المحلّيِّ. تسكن العائلة في بيت ذي طابقين، فيه أربع غرفٍ للنوم وحمامان في الطابق العلويّ، ومرحاض في الطابق السفليّ، وغرفة طعـامٍ كبيرة، وغرفة جلوسٍ في القبو، وثمة قطعة صغيرة من الأرض في الفناء الخلفي للبيت يستعملها أفراد العائلة في أوقات الراحة.

ومـع أن بيتهم مرهون جزئيًّـا، فإنّ والديْ بيكي يملـكان أسهماً وسنـداتٍ مصرفيةً وحساباً للتوفير في الفرع المحلّيّ لمصرفٍ وطنيٍّ.

1. بيت بيكي

هذا وإن والـدَ بيكي وشركتَه يدفعان معـاً أقساطاً شهرية لحصوله على معاشٍ تقاعدي بعد تركه عمله. وهو أيضاً، يؤدي دفعاتٍ شهريةً وفـق مخططٍ مع المصرف لتسديد نفقـات تعليم بيكي وسام. ثم إن موجودات العائلة وحياة أفرادها مؤمَّنٌ عليها.

وغالبـاً ما يلاحظ والدا بيكي أنهما يجب أن يلزما جانب الحذر فيمـا يتعلّق بالنقـود، لأن الضرائب الاتحادية عاليـة؛ وهما حذران فعلاً. ومع ذلك، فهما يملكان سيارتين؛ ويشارك ابنهما وابنتهما في مخيّمٍ صيفيٍّ كلّ سنة؛ وتقضي العائلةُ إجازةً معاً بعد انتهاء المخيّم. ويلاحـظ، والدا بيكي أيضاً، أن جيلَهـم سيعيش حياةً أكثر ازدهاراً

2. بيكي على دراجتها الهوائية متجهة إلى مدرستها

وسعادةً من جيلهما. فبيكي تريد حماية البيئة، وتصرّ على الذهاب إلى مدرستها ممتطيةً درّاجةً هوائية، وهي أن تصبح طبيبةً.

عالَمُ دِسْتَا Desta

دستا، التي عمرها قرابة عشر سنين، تعيش مع والديْها وخمسةٍ من أشقائها وشقيقاتها في قريةٍ في غرب إثيوبيا شبه الاستوائية. وتسكن العائلة في كوخٍ من الطين، مؤلفٍ من غرفتين، وسقفه مكوَّن من العشب. يعمل والدا دستا في زراعة الذّرة، ونوعٍ من الحبوب يسمى تِفْ teff (يُستعمل على نطاقٍ واسعٍ في إثيوبيا، ولا يُزرع إلاّ

3. بيت دستا

فيها)، على نصف هكتارٍ من الأرض التي منحته إياها الحكومة. ويقوم أحد أشقّاء دستا، الذي يكبرها سنًّا، بمساعدة والدها في زراعة الأرض والاعتناء بمواشي العائلة، المؤلفةِ من بقرةٍ ومعزاةٍ وبضعِ دجاجاتٍ. وفي حين تباع الكميةُ القليلةُ من حبوب التف التي تُنْتَجُ للحصول على دخل نقديّ، فإن معظم الذُّرة تُستهلك بوصفها مادةً غذائية رئيسية.

أما والدة دستا فتقوم بالعمل في قطعة أرض صغيرة مجاورة للكوخ، فتَزرع الملفوفَ والبصلَ ونوعاً من الجذور يسمى إِنْسِتْ enset (وهو نبات حَوْلِيٌّ يُستعمل، أيضاً، على نطاق واسع هناك). وبغية زيادة

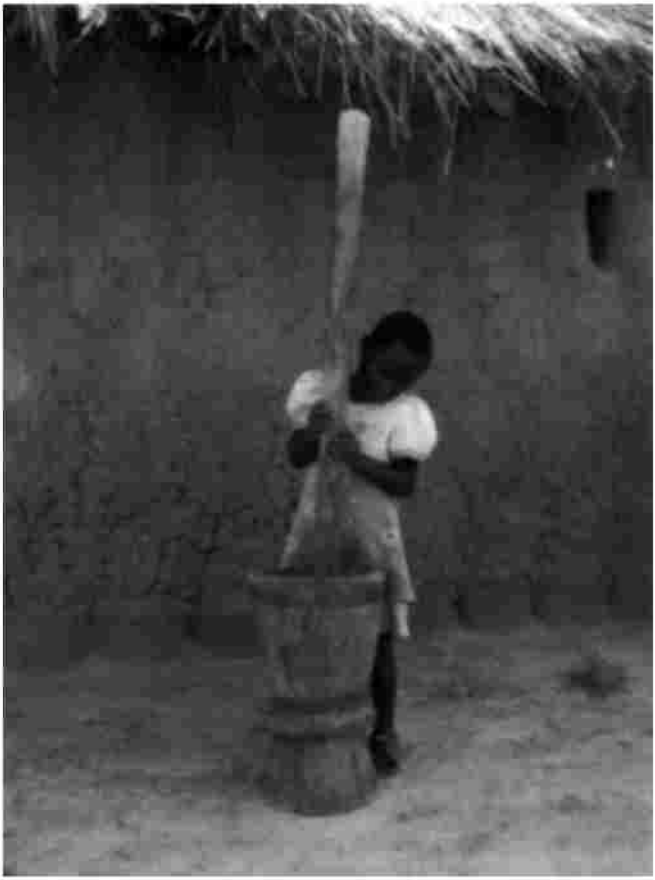

4. دستا في عملها

دخـل عائلتها، فهي تخمِّر مشروباً محلّيّاً مصنوعاً من الذرة. وبسبب كونها مسؤولـةً أيضاً عن الطبخ والتنظيف والاعتنـاء بالأطفال، فإن عملهـا اليومي يمتدّ عادة 14 ساعة. وبرغم هـذه الساعات الطويلة،

فلـن يكون بإمكانها إتمام المهمات الملقاة علـى عاتقها. (لمّا كانت كلُّ العناصـر التـي يُعَدّ منها الطعام من المواد الأوليّـة النيّئة، فإن عملية الطبخ وحدَها تستغرق خمس ساعاتٍ أو تزيد.) لذا فإن دستا وإحدى أخواتهـا، التي هـي أكبر منها، تساعـدان والدتهمـا في إنجاز بعض الواجبـات المنزليّـة البسيطة، ترعيان مَنْ هُمْ أصغـر منهما سنًّا من إخوتهمـا. ومع أن ثمة أخاً أصغر لهما يذهب إلى مدرسةٍ محلّيّة، فلم يسبـق لدستـا ولا لأختها الكبرى التسجيل في تلـك المدرسة. هذا وإن والديهما لا يستطيعان القراءة ولا الكتابة، لكنهما يستطيعان العدَّ.

لا يوجـد في بيـت دستـا كهرباء ولا مـاءٌ جارٍ. فمصـادر المياه، وأراضـي رعـيِ المواشي، والغابـات المحيطة بالبيت الـذي يعيشون فيـه، كلهـا ملكية عامـة. صحيح أنهـم يتقاسمون الانتفـاع بها مع النـاس الذيـن يسكنـون في قريـة دستـا، لكـنّ هـؤلاء القرويين لا يسمحـون للغرباء بالإفادة منها. لذا تقـوم والدة دستا وإخوتها كل يوم بإحضار الماء والحطب للتزود بالوقود، كما يقطفون ثمر العلّيق والأعشـاب من الأراضي المشاع المحليـة. وتتذمر والدة دستا مراراً مـن أن الوقت والجهد المبذولين لتوفـير حاجاتها اليومية يتزايدان باطّرادٍ سنةً بعد أخرى.

لا وجـود لمؤسسـة مالية لتُقدِّمَ قروضـاً أو تأمينـاتٍ. ونظراً إلى كـون الجنازاتِ مناسبـاتٍ مُكْلِفَةً، فقد شارك والـدا دستا قبل مدة

طويلـة في صنـدوقٍ للتأمـين الاجتماعيّ يَدفـع له أقساطـاً شهريةً. وعندمـا اشترى والدا دستا البقـرةَ التي يملكونهـا الآن، سَحَبَ كل مـا أودعه في الصنـدوق واحتفظ به في بيته، لكنّ تعـيّن عليه زيادةُ هذا المبلغ عن طريق الاقتراض من أنسبائه بعد أن وعدهم بتسديد دينه عندما يصبح قادراً على ذلك. وبالمقابل، فعندما يكون أنسباؤه بحاجـةٍ إلى شـيء، فَهُمْ يأتون إليه طلباً للحصـول على قرضٍ منه، وهو يستجيب إلى طلبهم إذا كان قادراً على ذلك. ويقول والدا دستا إن هـذه الأنماط من التّبادليّةِ التـي يمارسونها مع الأفراد المقرّبين منـه تمثل جزءاً من ثقافتهم. ويضيف إلى ذلـك قولَهُ إن أولادَه هم سنـدُهُ الرئيسـيُّ، لأنهم هم الذيـن يحتضنونه ويرعوْنـه مع زوجته عندما يصبحان متقدّمَيْن في السّنّ.

ويقدِّر الخبراءُ في الإحصاء الاقتصاديّ أنه لدى الأخذ في الاعتبار الفروقَ في تكاليف المعيشة بـين أثيوبيا والولايات المتحدة، فإن دخل عائلة دستا يعادل زهاء 5,000 دولار في السنة، يأتي 1,100 منه من المحاصيـل التي تجنيها العائلة مـن الأراضي المشاع المحلية. بيد أنه لمـا كانت كميةُ الأمطارِ تختلف مـن سنة إلى أخرى، فإن دخل عائلة دستا يتقلب بقدْرٍ كبير. ففي السنوات السيئة، نرى أن الحبوبَ التي تخزنها العائلةُ في البيت تُستنزَف بقوةٍ قَبْلَ موسم الحصاد القادم. لـذا فإن الطعـام هو من النـدرة بحيـث تصبح صحتهـم، لا سيما

الأطفـال الصغار منهم، أسوأ فأسـوأ. ولا يستعيدون قوتهم ووزنهم إلاّ بعـد موسم الحصـاد. وصار يعنـي تعرّضُهم للجـوع وإصابتهم بالأمراض دوريًّا، أنّ دستـا وأخوتَها توقّفوا عن النمـوّ إلى حد ما. وعلـى مر السنـين، فَقَدَ والـدا دستا طفلـيْن في مستهـلّ عمريهما، بعـد أن أُصيب أحدهما بالملاريـا، والآخر بالإسهال. وحدث، أيضاً، لوالدتها عدة حوادث إجهاض.

تَعْرِفُ دستا أنها ستتزوج (مزارعاً، على الأرجح، مثل أبيها) بعد خمسـ سنواتٍ من الآن، وعندئذٍ ستسكـن في أرضِ زوجها الموجودةِ في قريةٍ مجاورةٍ. وهي تتوقع أن تكون حياتُها مشابهةً لحياة أمها.

جدول أعمال (أجندة) العالِمِ الاقتصاديِّ

أنْ تكـونَ الحياةُ، التي بِوُسْـعِ الناس تحقيقَها، مختلفةً كثيراً بين مـكانٍ إلى آخر على كرتنـا الأرضية، هو شيء عـاديّ ومألوف. وفي عصرنـا الذي يتيسّر فيه السفر، فإن هـذا الاختلاف حقيقةٌ يمكن رؤيتها جهاراً. وَأنْ تواجهَ بيكي ودستا مستقبَلَيْن مختلفيْن جدًّا، هو، أيضـاً، شيء علينا توقّعه، بل ربما كان علينا قبوله أيضاً. ومع ذلك، فقـد لا نكون بعيدين عن الواقـع إذا تصوّرنا أن الفتاتيْن متشابهتان جدًّا جوهريًّا: فكلتاهما تستمتع باللَّعِبَ، والأكْلِ، والانهماكِ في القيل والقـال؛ إنهما قريبتان مـن عائلتيْهما؛ وهما تلجـآن إلى والدتيْهما

للتعبير عـن أحزانهمـا؛ وتحبّان ارتـداء ملابسَ جميلـةٍ؛ وكلتاهما قادرةٌ على تحمّل الإحباط والمضايقة، وعلى الشعور بالسعادة.

كذلك، فإن والدَيْ دستا يشبهان والديْ بيكي. فهم جميعاً يدركون تماماً طُرُقَ عالَمَيْهِمْ. إنهم، أيضاً، مهتمّون برعاية عائلتيْهم، وبإيجاد طرائقَ ذكيّةٍ لمواجهة المشكلات التي يتكرّر حدوثُها في الحصول على الدّخـل، وتوزيع المـوارد بين أفراد عائلتيْهـم، والتعاملِ مع الأحداث غـير المتوقعة. لـذا، فـإن الأسلـوب السليـم في اكتشـاف الأسباب الكامنـة وراء الظروف الحياتيـة المختلفة جدًّا، يبتدئ بملاحظة أن الفرصـ والعقبات التي تواجهها العائلتان مختلفـة جدًّا، وأن عائلة دستـا مقيدة، بدرجة أعلى كثيراً من عائلة بيكي، في قدرتها على أن تَرْقَى إلى وضعٍ تصبو إليه، وعلى أن تمارس العمل الذي تريده.

ويبذل علماء الاقتصاد جهوداً حثيثةً لكشف العمليّات التي تؤثّر في جعل الناس يعيشون الحياة التي وصلوا إليها. وهم يحاولون، أيضاً، تعـرّف الطرائق التي تؤثر في تلـك العمليات التحسين أوضاع أولئك الذين لا يستطيعون تجاوز ما يمكن أن يعملوه، وما يمكن أن يكونوه؛ وفي حـين يتطلب كشف العمليـات إيجاد تفسيرات لهـا، فإن تعرّف طرائقها يستلزم تحديد قواعد لتطبيقها. ويُجري علماءُ الاقتصاد، أيضاً، تنبؤاتٍ بمـا ستكون عليه ظروف الحياة الاقتصادية؛ بيد أنه إذا كان علينـا أن نحمـل تكهناتهـم علـى محمل الجـدِّ، فلا بد من

بنائها على فهمٍ للعمليات التي تصوغ حياة الناس، وهذا يفسّر سبب كون محاولة إيجاد التفسيرات تسبق إجراء التنبؤات.

إن السياقَ الذي يُبْحَثُ فيه عن التفسيراتِ، أو تحدَّدُ فيه القواعدُ، قد يكون أسْرةً، أو قريةً، أو مقاطعةً، أو بلداً، أو حتى العالَمَ كلَّهُ ـ فالمدى الذي يتجمع فيه الناس أو الأماكن، لا يعكس سوى التفصيلاتِ التي نختار بها دراسة العالَمِ الاجتماعيِّ. تصوّرْ أننا نرغب في فهم الأساس الذي يُبنَى عليه تقاسُمُ الطعامِ بين أفراد الأُسَرِ في مجتمعٍ ما. ما من شكٍّ في أنه يُتوقّع من دخل الأسرة أن يؤدي دوراً ما؛ لكننا بحاجةٍ إلى النظر إلى دخل الأُسَرِ إذا كنا نودّ اكتشافَ ما إذا كان الطعامُ موزَّعاً على أساسِ السِّنِّ، والجنس، والوضع الاجتماعي. فإذا وجدنا أن هذه هي الحال، وجب علينا التساؤل عن أسباب تأدية هذه الأشياء الثلاثة دوراً ما، وعن قواعد هذه السياسة التي تَفْرِضُ نفسَهَا، إنْ وُجِدَ مثل هذه القواعد. وبالمقابل، لنفترض أننا نريد أن نعرف ما إذا كان العالَمَ، كَكُلٍّ، أكثرَ ثراءً اليوم ممّا كان قبل 50 عاماً. وَلَمّا كان السؤالُ هو عن المتوسّطاتِ العالميّةِ، فقد يكون لنا مسوِّغٌ في تسوية الفروق ضمن الأُسر وبينها.

إن أخذ المتوسط averaging مطلوبٌ على مرّ الزمن أيضاً. والقصد من الدراسة وتكلفة جمع المعلومات يؤثران في اختيار وحدة

الزمن الذي يُجْرَى خلاله أَخْذُ المتوسّط. فمثلاً، يُجْرَى إحصاءٌ لعدد السكان في الهند كلَّ عشر سنوات. إن إجراء هذا الإحصاء بفواصل زمنية تقلّ عن عشر سنوات سيكون أعلى تكلفةً، ولن يقدِّمَ معلوماتٍ إضافيةً لها أيُّ أهمية كبيرة. وبالعكس، إذا تعيّن علينا دراسةُ التغيراتِ في حجم المبيعات الوطنية وفق الفصول، فلو أجرينا حتى إحصاءاتٍ سنويةً، فلن نستطيعَ تقديمَ وصفٍ كافٍ لهذه التغيرات. وتوفر الإحصاءاتُ الشهريةُ للمبيعاتِ الوطنيةِ تسويةً مفصّلة بين الوصفِ المفصَّلِ، وتكلفةِ الحصول على الوصف المفصِّل.

إن علم الاقتصاد الحديث، وأعني به الأسلوب الذي يدرَّس ويمارس به علم الاقتصاد في هذه الأيام في الجامعات الرئيسية، يميل إلى البدء في التساؤلات من الأساس إلى القمة: من الأفراد، إلى الأسرة ثم القرية ثم المقاطعة ثم الولاية ثم البلد، وصولاً إلى العالَمِ كلِّه. وبدرجاتٍ متفاوتة، تصوغ ملايينُ القرارات الفردية النتائجَ المحتملة التي يواجهها الناس. وتخبرنا النظرية والفطرة السليمة والأدلةُ أن ثمة عدداً هائلاً من العواقب لما نفعله كلُّنا. بعض هذه العواقب كانت مقصودة، لكنّ كثيراً منها كان غير مقصود. بيد أن تلك العواقب تشكِّل بدورها ما يمكن أن يفعله الناس فيما بعد، أو يختارون فعله. فعندما تقود عائلةٌ بيكي سياراتِها أو تستعمل الكهرباء، أو عندما تحرق عائلة دستا أوراقَ الشجر أو الحطب للطبخ، فإنهما يضيفان

إلى العالم إصدارات كربونيةً. ومع أن إسهامهما في هذا الضرر محدود جداً دون ريب، لكنّ الملايين من هذه الإسهامات المحدودة تتراكم لتصبح آثارها كبيرة، ولهذا عواقبُ سيئةٌ تؤثر في الناس في أي مكان وُجدوا فيه، وبطرقٍ مختلفة. ومن المدهش أنّ النتائجَ غير المقصودة يمكن أن تتضمن سماتٍ طارئةً، مثل أسعار السوق التي يكون فيها طلب السلع معادِلاً، تقريباً لعرضها.

قَدَّمْتُ فيما سبق وصفاً لحياة كلٍّ من بيكي ودستا. لكن فهم حياتهما يتطلب أكثر من هذا الوصف؛ إنه يستلزم تحليلاً يقتضي مزيداً من الوصف. ولإجراء هذا التحليل، نحتاج قبل كل شيء إلى تعرّف المظاهر المادية لأسرتيهما ـ الآن وفي المستقبل، وذلك في حال حدوث حالات طارئة غير مؤكَّدة. ثانياً، نحن بحاجةٍ إلى كشفِ طبيعةِ خياراتهما، والطرقِ التي يسلكها لتحديد هذه الخياراتِ ملايينٌ من الأسر من أمثال أسرتيْ بيكي ودستا، والتي أوصلتهم إلى ما يواجهونه. ثالثاً، نحن بحاجة إلى كشف الطرق التي سلكتها العائلات لتصل إلى ظروفها المعيشية الحالية.

ويتطلب هذا التحليل جهداً كبيراً، بل منفِّراً. إلى ذلك، ثمة فكرة يمكنها ملاحقتنا هي: لمّا كان من المحتمل أن يؤثر كل شيء في أي شيء آخر، فكيف يمكننا فهم العالَمِ الاجتماعيّ؟ لكنْ إذا ما سمحنا للقلق أن يسيطر علينا، فلن نحرز أيَّ تقدم أبداً. وكلُّ نظام

أو فـرعٍ معرفيٍّ تَآلَفْتُ معه، يقتضي إعداد رسـومٍ كاريكاتورية للعالَمِ كـي يصبح مفهوماً. ويقوم عـالِمُ الاقتصادِ الحديـثُ بفعل هذا عن طريق بناء النماذج models، التي تَستخلص تمثيلاتٍ للظاهرة التي ندرسها. وهـذا الاستخلاص شائعٌ بين علمـاء الاقتصاد، وهو يركّز علـى عاملٍ سببيٍّ أو عاملَيْن، ويستثني أيَّ شيء آخر، أملاً في أن هذا سيمكّننا مـن فهم كيفية عَمَلِ هذه المَشاهـد في عالم الواقع، وكيفية تفاعلهـا. وقد وصف الاقتصاديُّ جون مينـارد كينز J.M. Keynes موضوعنا كما يلي: علم الاقتصاد هو علم للتفكير بلغة النماذج، وهو مرتبط بفنّ اختيار النماذج الوثيقة الصلة بالعالَم المعاصر.

وعندمـا يتعامـل علمـاء الاقتصـاد مـع أشيـاء قابلـة للقياس (الكالوريـات المستَهلَكةُ، عـدد ساعات العمل، أطنـان الفولاذ التي أُنتجت، أميـال الكِبَـال cables التي جرى تمديدُهـا، الكيلومترات المربعـة المدمَّرة مـن الغابـات الاستوائيـة)، تكون النمـاذجُ، دوماً تقريبـاً، إنشـاءاتٍ رياضيّـةً. ومن الممكـن إيرادهـا بالكلمات، لكن الرياضيات هي أسلوب فعال جداً للتعبير عن بنيةِ نموذجٍ ما، والأهم من ذلـك، لاكتشافِ اقتضاءات نموذجٍ ما. وقد عَرَفَ المتخصصون في الرياضيـات التطبيقيـة والفيزيائيـة هـذا منذ زمـن بعيد، لكنّ الاقتصاديـين لم يعتمـدوا هـذا التكتيـك البحثـي إلاّ في النصـف الثـاني من القـرن العشرين، وهذا يصحّ على فـروعٍ أخرى مرتبطةٍ

بالاقتصاد، مثل علم البيئة. وَفَنُّ النمذجة الجيدة هو توليد قدر كبير من الفهم نتيجة التركيز على عدد صغير جدًّا من العوامل السببيّة. وأقول كلمة «فنّ» بسبب عدم وجود صيغة لتوليد نموذج جيد. ويستند الحكمُ الدقيق على نجاح نموذج ما إلى كون هذا النموذج متميزاً بين تفسيرات بديلة للظاهرة التي يعبّر عنها هذا النموذج. وتكون تلك النماذج التي تجتاز بنجاحٍ الاختباراتِ العمليةَ مقبولةً ـ لمدة قصيرة على الأقل ـ إلى أن يَرِدَ دليلٌ يلقي ظلالاً من الشك عليها؛ وفي مثل هذه الحالة يعود الاقتصاديون إلى لوحة الرسم لإيجاد نماذج أفضل (وليست أكبرَ بالضرورة!)، وهكذا.

إن هذه المنهجية التي أوردتُها هنا، باختصارٍ شديدٍ، تمكِّن الخبراءَ الاقتصاديين من إجراء نمطٍ من التنبؤ لا يتضمن التنبؤَ بالمستقبل، لكنه يقدِّمُ، بدلاً من ذلك، تنبؤاتٍ لما ستكشف عنه المعطيات (البيانات) data التي لم تُجْمَعْ بَعْدُ من العالَم المعاصر، هذا عملٌ محفوفٌ بالمخاطر، بيد أنه إذا كان على نموذجٍ أن يُلقي الضوءَ على شيء، فمن الأفضل ألاّ يكتفيَ بمجرد تقديمِ تفسيراتٍ بعد انتهاء الأحداث.

وحتى عهد قريب، كان علماءُ الاقتصاد يدْرسون التاريخ الاقتصاديّ بنفس الطريقة تقريباً التي كان يدْرس بها المؤرخون التاريخ الاجتماعيّ والسياسيّ. كانوا يحاولون إماطة اللثام عن

الأسبـاب التي جعلت الأحداثَ في مكان معيّنٍ تجرِي بالطريقة التي جرتْ بها، وذلك بتحرّي مـا كانوا يعتقدون بأنها الدوافع الرئيسية لهـذه الأحداث. وكان التوكيـد موجَّهاً إلى وحدانيـة الأحداث التي كانـت موضـوع الدراسـة. وكان يتضمّن موضوعُ البحـث التقليدي آنـذاك السؤالَ عن سبب حدوث أول ثورة صناعية في القرن الثامن عشـر، وعـن سبـب حدوثها في إنكلـترا. وكمـا تـرى، كان السؤال مؤسّسـاً على ثلاثـة افتراضات هي: كان ثمة ثـورة صناعية؛ وأنها حدثت في القرن الثامن عشر؛ وأنها شبّت في إنكلترة. وبالطبع، فقد جـرى دراسـةُ هذه الفرضيات الثلاثـة كلِّها، بيد أنـه كان ثمة قدرٌ هائل من العمل لا بدّ من إنجازه، حتى بين أولئك الذين توصلوا إلى هذه الافتراضات انطلاقـاً من دراسةٍ تاريخيةٍ لها. ومهما يكن من أمـر، فإن الأدبيّات، المتعلقة بهذه الأسئلة، هي واحدة من المنجزات العظيمة في التاريخ الاقتصادي.

وفي السنـوات الأخـيرة، أضـاف الخـبراء الاقتصاديـون طريقة إحصائية إلى الدراسـة التي أُجريت سابقاً. وهذه الطريقة الجديدة تظـل قريبةً مـن النظرية الاقتصادية، وذلـك بالإلحاح على عمومية العمليـات التي تصوغ الأحداث. وهي تتبنّى وجهـةَ النظرِ القائلةَ بأن النظريةَ يجب أن تكشف النقاب عن تلك السِّمَاتِ المشتركةِ بين السُّبُل الاقتصاديـة في الأماكن المختلفة، وفي أوقـاتٍ مختلفةٍ. ويقرُّ الجميعُ

بأنـه لا يوجـد اقتصادان متطابقـان، لكن الاقتصاديـين المعاصرين يهتمـون بالقضايـا المشتركة بـين التجـارب الإنسانيـة، لا بالقضايا المختلفـة بينها. لنفرض أنك تريد تحديد السّمات المعاصرة في عالَمَيْ دستا وبيكي، التي تعلّل أسباب كون مستوى معيشة دستا أخفضَ كثيراً مـن مستوى معيشة بيكي. ثمة مجموعةٌ من النماذج الاقتصادية التي تخـبركَ أن تلك السّمات تُمثَّلُ بالمتغيرات X، Y، Z. ما تعملُهُ هو أنّك تتحرّى الإحصائيات العالميـة للمتغيرات X، Y، Z انطلاقاً من عيّنةٍ لبلدانٍ، ربما كان عددها 149. الأرقام تختلف من بلدٍ إلى آخر، لكنّكَ تعتبرُ المتغيراتِ نفسَهَا عواملَ تفسيريةً مشتركةً بين كل البلدان الواردة في العيّنة. وبعبارةٍ أخـرى، فإنك تعتبرُ اقتصادياتِ تلك البلدانِ كلَّها متوازيةً، وتُعامِلُ السّماتِ، التي تختلف بين بلد وآخر، على أنها خاصّةٌ بكلّ بلد. وبالطبع، فأنت لا تملك الحرية الكاملة لنمذجة تلك البلدان ذات السمات المختلفة بأي طريقة تشاء. فالنظرية الإحصائية ـ التي تسمى في السياق الحالي الاقتصادَ القياسيَّ econometrics ـ تفرض حدوداً على الطريقة التي تتبعها في نمذجتها.

واستناداً إلى المعطيات عن البلدان التي عددها 149 في عيّنتك، يمكنك الآن اختبارُ ما إذا كان يجب عليك الوثوقُ بأن X، Y، Z هي العوامـلُ التي تحدّد مستوى المعيشة. لنفترض أن الاختبارات تنْبئكَ أن بإمكانـك الوثوق بالعوامـل. عندئذٍ، سيمكّنك إجـراء مزيدٍ من

التحليل باستعمال المعطيات، من تحديد مقدار التغيير في مستوى المعيشة في العيّنة، الذي يمكن تفسيره بتغيراتٍ في X في العينة، وبتغيراتٍ في Z، وبتغيرات في Z. وستزوّدك تلك النِّسبُ بإحساسٍ بالأهمية النسبية للعوامل التي تحدّد مستوى المعيشة. لنفترض أن 80 بالمئة من التغيير في مستوى المعيشة في البلدان الـ 149 يمكن تفسيرها بتغييرٍ في X في العينة، وأن العشرين بالمئة المتبقّية تفسَّرُ بتغيراتٍ في Z ،Y. عندئذٍ ليس من مُسَوِّغٍ لك الاستنتاجُ أن X هو المتغير التفسيريّ الرئيسي.

ثمة مشكلاتٌ ضخمةٌ في تطبيق علم الإحصاء في المعطيات الاقتصادية. وعلى سبيل المثال، فقد يحدث أن توحي نماذجُك الاقتصاديةُ، إذا أُخذَتْ معاً، بإمكان وجودِ عواملَ، عددها 67، مثلاً، تحدِّد مستوى المعيشة (لا العوامل X، Y، Z فقط). لكنْ لديك عيّنة من 149 بلداً فقط، وأيُّ خبيرٍ بالإحصاء سيخبركَ الآن أن 149 عددٌ جدُّ صغيرٍ في مهمّةِ إماطة اللّثامِ عن دور العوامل التي عددها 67. وهناك مسائلُ أخرى تُقْلِقُ الخبراءَ في الاقتصاد القياسيّ، لكنْ قَبْلَ أن تهجرَ الإحصاءاتِ وتعودُ ثانيةً إلى الأسلوبِ القصصيِّ للمحادثات، المبنيِّ على الملاحظة والاختبار، اطرحْ على نفسك السؤالَ التالي: لماذا يجب على أي شخص تصديقُ حكايةٍ تاريخيةٍ رواها عالِمٌ دون أن يصدِّق آخر؟ وربما تتساءلُ عمّا إذا كانت النَّزعة

الأدبيَّـةُ للعالمِ قـد أثّرت في استحسانك لعملـه. وسيعيد شخصٌ ما طمأنَتَـكَ بأنّ مؤلِّف الحكايـةِ التاريخيةِ يملك نموذجـاً موجوداً في عقلـه. سيخبركَ أن نموذج المؤلِّف أثّر في خياره للأدلة التي عرضها في عملـه، وأنه لم يخترها إلا بعـد أن مَحَّص قدراً كبيراً من الأدلة. وأنت تسأل كيـف يتعين عليك الحكم ما إذا كان نموذجُهُ المفاهيميُّ أفضـلَ من نموذجِ شخصٍ آخرَ. ما الـذي يعيدنا إلى مشكلة اختيار نماذج بديلة مـن الظواهر الاجتماعية. سنكتشف في الفصل التالي أن الحكايـات التاريخيـة تستمر في أداء دورٍ هـامٍّ في الاقتصاديات الحديثة، لكنها أُعِدَّتْ للعمل بالاشتراك مع بناء النماذج واختبارات الاقتصاديات القياسي.

ثمة افتراضـات ضمنية تشـكل الأساس لاختبـارات الاقتصاد القياسي يصعب تقييمها. لذا فـإن الإحصاءات الاقتصادية غالباً مـا تكون نصف شفافـة في أحسن الأحول. وليـس من غير المألوف لكثـير من النماذج المتنافسـة أن تتعايش معـاً، وأن يكون لكلٍّ منها أنصـاره. فبنـاء النمـوذج، والمعطيـات، والمُتاحيّـةُ availability، والحكايـات التاريخية، والتقدمات في تقنيـات الاقتصاد القياسي، يُعـزّز بعضها بعضاً. ويعـبّر عالمُ الاقتصادِ روبـرت سولو Robert Solow عـن هذا بقوله: «الحقائقُ تتطلّبُ إيضاحاتٍ، والإيضاحاتُ تتطلّبُ حقائقَ جديدةً».

في هـذه الدراسة، أودّ أولاً منحكمٌ شعوراً بالطريقة التي يسلكها علمـاء الاقتصاد في إماطة اللثـام عن الأساليـب الاقتصادية التي تصـوغ حياة بيكي ودستـا. وسأقوم بذلك بمعالجـة ثلاثة أنواع من الأسئلـة التي ذكرنا سابقاً أنها تستحوذ على اهتمامنا. سأشرح بعد ذلـك السببَ في حاجتنـا إلى سياسات اقتصاديـة، والطريقَ الذي يجب سلوكه لتحديد الأشياء الجيدة. وبالطبع، فسنبني نماذجَ خلال مسيرتنـا، لكننـا سنستعمل، في الأغلب، كلمـاتٍ لشرحها. وسأشير أيضـاً إلى المكتشفـات التجريبيـة التـي تحقّقـتْ في الأنثربولوجيا (علـم الإنسان)، وعلم السكان، وعلم البيئـة، والجغرافية، والعلوم السياسيـة، وعلـم الاجتمـاع، وبالطبـع، علم الاقتصـاد ذاته. لكن العدسـة التـي سندرس مـن خلالهـا العـالَمَ الاجتماعـيَّ هو علم الاقتصـاد. وسنقبل بوجهة نظـرٍ تتعلّق بظروفِ المعيشـةِ التي تُبرزُ أهميـةَ تخصيـصِ الموارد النّـادرة ـ بـين المعارين وعـبر الأجيال. وتتلخص فكرتـي في مرافقتكـم في جولةٍ لـتَروْا مـدى قدرتنا على التوصّل إلى فهمِ العالَمِ الاجتماعيِّ المحيطِ بنا وما وراءه.